مستنيرة عيون أذهانكم

تحتفل الكنيسة في الأحد السادس من الصوم الكبير بسر الاستنارة من خلال إنجيل المولود أعمى. والاستنارة هي انفتاح عيون الذهن على حقائق وأسرار الملكوت. وإن كان سر المعمودية يسمى سر الاستنارة إلا أنه لا يعني أن الطفل صار مستنيراً بالكمال بمجرد معموديته ولكن أنه اكتسب في بذرة إنسانه الجديد عينين روحيتين قادرتين على التطلع والمشاهدة الروحية. وكما أن المولود أعمى لم يستطع بمجرد أن أبصر أن يستوعب كل ما انفتحت عليه عيناه من صور بصرية لكنه احتاج للكثير من الوقت حتى يعي حقيقة أشياء كان يبصرها بأذنيه وخياله من قبل وبات يبصرها الآن بعينيه، هكذا الحال في استنارة عيون الأذهان التي هي عملية نمو مستمر في المعرفة الروحية تبقى حتى في الدهر الآتي: "أما سبيل الصديقين فكنور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل" (أم٤:١٨)، "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك" (يو١٧:٣)

والإبصار يحتاج لثلاثة عناصر: عينين سليمتين، ونور خارجي، ومركز إبصار في المخ قادر على استيعاب الصور البصرية وتحويلها إلى معانٍ وحقائق. بالتالي لا يكفي أن يكون للمرء عينان لكي يبصر ولكنه ما لم يبقَ في النور فإن عينيه تضمران وتصيران عاطلتين. والأعين الروحية التي نكتسبها في المعمودية، مثلها مثل الأعين الجسدية، ليس فيها نوراً في ذاتها ولكنها تحتاج إلى النور حتى تعمل: "إن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر **لأن النور ليس فيه**" (يو١١: ٩-١٠). وإن كانت أعين الجسد تحتاج للنور المادي المخلوق لكي تبصر فإن أعين الروح تحتاج لنور وجه المسيح غير المخلوق لكي تستنير: "ارفع علينا نور وجهك يا رب" (مز٤:٦). يعني ذلك أنه لا يكفي أن يعتمد الإنسان لكي يستنير، فما لم يلتصق عقله بالله مصدر النور وما لم يجاهد لكي يثبت في حضرته فإن العينين الروحيتين اللتين اكتسبهما في المعمودية لا تفيدانه شيئاً بل وتضمران.

وإن كانت عملية الاستنارة الروحية عملية نمو تدريجي في المعرفة إلا أن سرعتها تختلف من شخص لآخر. ففي قصص تفتيح أعين العميان في الكتاب المقدس، وكذلك في قصة استعادة بولس لبصره تكررت عبارات مثل: "فللوقت أبصرت أعينهما" (مت٢٠:٣٤)، "فللوقت أبصر" (مر١٠:٥٢)، "وفي الحال أبصر" (لو١٨:٤٣)، "فأبصر في الحال" (أع٩:١٨). أما في قصة شفاء أعمى بيت صيدا فقد استعاد البصر ببطء على مرحلتين، وفي قصة تلميذي عمواس فقد استغرقا الكثير من الوقت حتى "انفتحت أعينهما وعرفاه" (لو٢٤:٣١). والعامل المشترك هنا هو ضعف الإيمان فبيت صيدا نالت الويل بسبب عدم إيمانها (مت١١:٢١)، وتلميذا عمواس نالا التوبيخ: "أيها الغبيان والبطيئا القلوب

في الإيمان" (لو٢٤:٢٥). أي أن سرعة النمو في الاستنارة تعتمد على درجة الإيمان. فما لم نصرخ أكثر كثيراً بكل حرارة الإيمان طالبين أن نبصر لن نستمع لتلك البشرى السارة: "قومي استنيري لأنه قد جاء نورك" (أش٦٠:١)